مجلة الواحات للبحوث والدراسات
ELWAHAT Journal for Research and Studies
Available online at :https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/2
ISSN : 1112- 7163 EISSN: 2588-1892 المجلد 15 العدد1 (2022): 449– 466

تمثلات الذاكرة التاريخية في السينما الجزائرية: الرهانات والاشتغال

Representations of historical memory in Algerian cinema: Bets and workings

نواري بن حنيش
جامعة الجلفة –الجزائر–
كلية الآداب اللغات والفنون
مخبر توثيق المسرح الجزائري، جامعة وهران1
nozah79@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/03/15 تاريخ القبول: 22/ 2021/08 تاريخ النشر : 2022/06/09

ملخص :

مما لاشك فيه أن تاريخ الأمم والشعوب الحافل بالنّضال والكفاح، والأمجاد والبطولات، يضل دوما وأبدا راسخا في أذهان تلك الشعوب، تحتفي وتتغنى به في شتى المناسبات، كي لا ينسى ويندثر، ويبقى إرثا ذهنيا تتوارثه الأجيال، عبر الحفاظ والاسترجاع والتعرف وإبراز قدرته على تذكر الأحداث الماضية والأفكار السابقة، واسترجاعها وتزويدها، وإعادة ترتيبها، وبعثها من خلال وسائط فنية على غرار الفن السينمائي الذي يعدّ الوعاء المخزن لأحداث ووقائع تاريخية.

ومن المتعارف عليه أن السينما بمختلف البقاع تتغذى في أعمالها من التاريخ بأحداثه وتفاصيله الجزئية والكلية، وتحولات مجتمعاته، بغض النّظر عن طبيعة المجتمع، ليتحول بذلك التاريخ إلى مادة درامية تستلهم منها السينما أحداثها لتبلورها فنيا بالصوت والصورة، مما يطرح ضرورة إعادة النّظر في المنهج الذي يتبعه صناع السينما في عملية توظيف التاريخ، والاشتغال عليه وتمثله وتصويره لخدمة الذاكرة التاريخية، وهذا ما يتجلى في العديد من الأفلام الجزائرية التي استلهمت موضوعاتها من ثورة التحرير، لتصبح أرشيف معينا للأجيال القادمة.

كلمات دالة : ذاكرة، تاريخ، سينما، أرشيف، فن

المؤلف المرسل: نواري بن حنيش: nozah79@gmail.com

Abstract:

There is no doubt that the history of nations and peoples, which is full of struggle and struggle, glories and heroics, stays always and forever firmly entrenched in the minds of those peoples. Through artistic media such as cinematography, which is a container for historical events.

It is well known that cinema in various regions is nourished in its works from history, so that history turns into a dramatic material from which cinema draws its events to crystallize it artistically with sound and image, which raises the need to reconsider the approach that filmmakers follow in the process of employing history and working on it, and this is what is evident In Algerian cinema, whose subjects were inspired by the liberation revolution, to become a specific archive for future generations.

Key words:

Memory, history, cinema, archive, art

مقدمة:

تعتبر الذاكرة التاريخية بمثابة الموروث الذهني الذي ظل مترسخا عبر قرون في ذاكرة الأمم والشعوب تتوارثها الأجيال أبا عن جد، كونها جزءا لا يتجزأ من ماضيهم العريق، وامتداد لحاضرهم واستشرافا لمستقبلهم، وهذا ما دفع المهتمين بالتاريخ الجديد، وعلى رأسهم "فرنانند دروديل" إلى الاهتمام بتقنيات السينما بعدما أصبحت كنزا مشتركا لكل من يريد التعامل مع الماضي، وقد عرفت العقود الثلاثة الأخيرة تزايد في الاهتمام بالوثيقة السينمائية لتميزها عن الوثائق المكتوبة، فهي لا تدون الحدث على الورق، وإنما تدونه على أشرطة السيلوليد Cellulod صوتا وصورة وحركة، أي أنها وثيقة نابضة بالحياة تكاد تكون صورة طبق الأصل لواقع الحدث الفعلي ذلك أنها تجمع بين الزمان والمكان والإنسان، لتصبح بعد ذلك وسيلة لبناء الذاكرة الجماعية وتكوين الوعي المشترك.

وظّف السينمائيون التاريخ كموضوع لأشرطتهم منذ وقت مبكر، حيث تتضمن السينما كوثيقة أو مصدرا للتاريخ المعاصر معطيات متنوعة وغزيرة أحيانا، كما أن الفيلم التاريخي الذي يبدعه بعض عباقرة السينما يمكن اعتباره بمثابة قراءة للتاريخ لا تقل أهميته عن قراءة مؤرخ محنّك،

وبالتالي لا يمكن حصر عمل السينمائي بمجال علم النفس أو الاجتماع فحسب، بل هو مؤرخ قبل كل شيء، يقدم وثيقة تاريخية متميزة، وأصبح من الضروري اليوم توسيع مفهوم الوثيقة التاريخية ليشمل مجال الصورة، وبالتالي توسيع مجال الإشكاليات التاريخية إلى مجال أرحب لا تسمح بها الوثيقة التقليدية.

إنّ السينما منذ بداياتها الأولى وهي تنهل إبداعاتها من كافة الحقول المعرفية، بدءا من التاريخ والسياسة والمجتمع والأدب والفنون، وكان التاريخ من أبرز تلك الحقول التي وظفتها في اشتغالها على الشخوص والأحداث التي أعطتها بعدا إبداعيا، وجماليا، وأسطوريا تارة، وواقعيا تارة أخرى، ساهمت من خلالها في توثيق وصيانة جزء من التاريخ والذاكرة العالمية، وقربت الإنسان بشكل سلس وممتع من تاريخه، وخلّدت الأحداث التاريخية، سواء تعلّق الأمر بالحروب والصراعات، أو بنضال الشعوب التحريرية ومقاومتها للتخلّص نير الاستعباد والاحتلال، وبذلك عملت السينما على نقل التاريخ من المكتوب إلى المرئي المصور والناطق، وهذا ما نجده جليا في السينما الجزائرية.

هناك العديد من الأعمال السينمائية الجزائرية التي تناولت أحداث الماضي ووقائعه، إسهاما منها في حفظ الذاكرة، خاصة ما يتعلق بالتاريخ الوطني ومحطاته في مواجهة الأطماع الأجنبية، ويبدو أن معظم الأعمال تسعى إلى الاحتفاء بالذات وتمجيدها في أغلب الأحيان، إذ يعمل المنجز الفيلمي المهتم بالذاكرة الوطنية على مسايرة أطر اشتغال الذاكرة الجماعية، بما هي ذاكرة فولكلورية واحتفالية تنبني على أبعاد انتقائية تستدعي كل الانطباعات الايجابية لإرضاء الذات.

الإشكالية

تعد الذّاكرة التاريخية انعكاسا لماضي الشعوب، تستقي منها المعارف من خلال مختلف الوسائل المؤثرة على غرار الفن السينمائي الذي يعد من الفنون الإبداعية، التي ساهمت ولازالت تساهم بحيز وافر في التأثير على الأذهان والعقول، وتصور للإنسان جزءا من واقعه بحاضره وماضيه، حيث تعدّ العلاقة بين التاريخ والسينما إشكالا حقيقيا يحتاج إلى بحث جاد ومنهجي، خاصة أن هذه الأخيرة تتقاطع مع التاريخ في اشتغال كليهما على الزمن والمكان في بناء موضوعات أعمالهما، وان اختلفا في غاياتهما ورهاناتهما معا، ومن هنا تتبادر إلى الذهن بعض التساؤلات أهمها :

– ما هي القضايا التاريخية التي تناولتها السينما الجزائرية ؟ وكيف عالجتها وسردت أحداثها؟

– ما هي رهانات الاشتغال على الذاكرة والتاريخ في السينما الجزائرية ؟

1 – مفهوم الذاكرة

يشمل مفهوم الذّاكرة عموما تخزين المعلومة وإعادة تذكّرها، كما يمكن لهذا المفهوم أن يلتقي مع تعريفات أخرى بحسب المنطلقات الفكرية والقواميس المعرفية، إذ تتواضع حولها العلوم العصبية باعتبارها تلك القدرة على اكتساب المعلومة والحفاظ عليها واستعادتها، بينما يؤكد علماء النفس على أنها إمكانية لتكييف السلوك وفق التجربة الماضية، أما في مجال الالكترونيات والمعلومات فإنها تعدّ جهازا بدنيا يسمح بالحفاظ على المعلومات أو المعطيات وإدراجها.

الذّاكرة عملية ذهنية مركبة تشمل قدرات مختلفة كالحفاظ والاسترجاع والتعرف... تبرز أيضا قدرة الفرد على تذكّر الخبرات والأحداث والأفكار السابقة واسترجاعها وتزويدها وإعادة تنظيمها. حسب "جيمس دريفر" فان الذاكرة تعني الخاصية أو الوظيفة التي بواسطتها تترك الخبرات التي تمر بها الكائنات البشرية وراءها آثارا تنعكس على سلوكها وخبراتها التالية. (الصالح، 1999، صفحة 332)

يستدعى لفظ الذاكرة أيضا للدلالة على القوة التي تدرك بقاء ماضي الكائن الحي في حاضره، يقول "ريبو": " الذاكرة وظيفة عامة للجهاز العصبي تنشأ عن اتصاف العناصر الحية بخاصة الاحتفاظ بالتبدّلات التي تطرأ عليها، وبقدرتها على ربط هذه التبدّلات بعضها ببعض. (جميل، 1982، صفحة 585)

2 – أبحاث في الذاكرة

تسعف أبحاث الذاكرة في تشريح مزايا الاسطوغرافيا[1] ومكوناتها، والكشف عن أماكن الذاكرة ووظائفها المادية كالمآثر التاريخية واللامادية كالسير الذاتية والمرويات الشفهية والألقاب. (محمد، 2015، صفحة 154)

ما لبث هذا الاشتغال بالذاكرة في أبعاده الكبرى يعكس اهتماما بتاريخ الأماكن والكيانات التقليدية والحديثة، لتعبر عن ذاتها والاحتفاء بما يميز شخصها، ويقوي تفردها عن الآخر في أحيان عديدة بالقدر الذي تنصهر فيه ذاكرة الفرد في ذاكرة جماعية، تقتسم ذكريات التجارب المعيشة في

1 الاسطوغرافيا : تعني مجموع النتائج التي توصل إليها الدارسون للكتابات التقليدية كالحوليات والمذكرات والطبقات والسير

الحياة المادية والمعنوية والرمزية من احتفالات وأرشيف وصراعات ومآثر تاريخية، وكذا نكبات وإخفاقات وانكسارات تاريخية. (فؤاد، 2017، صفحة 138)

3 – الذاكرة والتاريخ

اهتمت تخصصات علمية عديدة بالذاكرة، إذ تتضايق دلالات الذاكرة بين حقول معرفية كثيرة، وغالبا ما تقترن الذاكرة بالتاريخ في حقول العلوم الإنسانية والاجتماعية، وكثيرا ما يستند التاريخ على الذاكرة في أبعاد معينة خلال معالجة بعض أحداث الراهن، إذ يقترب التاريخ من الذاكرة رغم تعارضهما واقعيا، ويضطر المؤرخ إلى استدعاء وثائق تناقض الذاكرة وتكشف ثغراتها. (الأحد، 2012، صفحة 175)

وبما أن الذاكرة هي موروث ذهني يختزن ما تبقى من الماضي في أذهان الناس، أو ما يتصورونه بخصوص هذا الماضي من ذكريات تغذّي التمثلات الجماعية، بينما يعدّ التاريخ معالجة وترتيبا موضوعيا ونسبيا للماضي، أو بمعنى آخر هو بناء إشكالي للماضي، انطلاقا من عملية فكرية نظرية تشتغل بالتحليل والتفكيك والنقد.

تظل الذاكرة أكثر وقعا من التاريخ بالنظر لدرجة تأثيرها على الناس، مقارنة بمحدودية التاريخ الذي ينتج كثيرا من المعطيات لكنه يقنع قليلا، وباعتبار أن الذاكرة التاريخية نقدية تأويلية وفكرية. (فؤاد، الذاكرة التاريخية في السينما المغربية: الرهانات المجتمعية ودلالات الاشتغال، 2017، صفحة 135)

3 . 1 – السينما التاريخية والذاكرة

ساهمت السينما التاريخية في التوثيق للتاريخ والذاكرة من خلال طرح الأحداث المختلفة والسير الذاتية في بداياتها، لتخلد أشخاصا ومواقف في الذاكرة التاريخية للإنسانية، كما هو الشأن في السينما الجزائرية التي تصدرت تيمة الثورة التحريرية، ومدى تداعياتها ووقائعها، درجة عالية من الأهمية، لبقائها حية في ذاكرة الشعب الجزائري، نتيجة ما خلفته جرائم الحرب الفرنسية من جرائم شنيعة،لتشهد أفلام الثورة عدة تحولات من حيث التوجهات والمضامين، حدثا أو ظاهرة أو شخصية تاريخية، مبنية على تحاليل ورؤى المخرجين من جهة، والظروف السياسية والاقتصادية من جهة أخرى. (قطاف، 2020)

إن الأفلام التاريخية التي تتناول أحداث ووقائع من تاريخ الثورة الجزائرية، ساهمت بشكل كبير في إرساء دعائم الذاكرة الجماعية، وغالبا ما تتعرض الأفلام الوثائقية على سبيل المثال إلى النبش في الذاكرة الجماعية ودعمها من خلال الوثائق التاريخية والشهادات الحية ممن عاشوا الحقبة الاستعمارية، لبرز ثلة من المخرجين في تلك الفترة عرفوا كيف يستقون موضوعاتهم من المادة التاريخية ويترجمونها فنيا وجماليا من خلال الصوت والصورة على شاشة السينما لتبقى إلى يومنا هذا شاهدة على مجازر المستعمر وتخلدها في ذاكرة الأجيال الصاعدة.

4 – السينما والتاريخ: جدلية العلاقة

يعتقد بعض مؤرخي الفن السابع أن العلاقة بين التاريخ والسينما علاقة متبادلة، فقد شكلت السينما ذاكرة سمعية بصرية حقيقية بعدما تمكن عدد من السينمائيين من انجاز أفلام تحاكي حقبا تاريخية سابقة، بنفس القدر الذي أسهم فيه التاريخ في تقديم موضوعات كثيرة، ومتعددة للفيلم السينمائي.

لقد بادر فاعلون في مجال صناعة السينما إلى اقتباس أحداث تاريخية، وحولوها إلى أفلام سينمائية، حيث أصبحت السينما تسمح لنا بمشاهدة الأحداث التاريخية، ويمكننا القول أن السينما والتاريخ يتبادلان العطاء، فهما مجالان يلتقيان في ما صار يعرف اليوم بـ "الفيلم التاريخي" أو "السينما الثورية".

إن الظاهرة الاستعمارية التي عرفتها شعوب ودول افريقية كثيرة، كانت قد تعرض لقهر استعماري أوروبي لا تزال تداعياته إلى يومنا هذا، والجديد في المسألة هو تزامن ظهور الفن السينمائي عبر العالم مع تواصل الحملات الاستعمارية على تلك الدول، ومن بين هذه الدول الجزائر التي تعرضت للاستعمار الفرنسي طيلة 130 سنة، فشهدت مسارا نضاليا، وحركة ثورية مضادة من أجل الذود عن الوطن بشتى وسائل الكفاح، وكانت السينما إحدى تلك الأدوات.

أنجز السينمائيون الجزائريون عددا من الأفلام الروائية والوثائقية التي تحكي عن الثورة، وتحاول نقل واقعها، وبما أن تلك الأفلام التي تطرقت للقضية الجزائرية قدمت مجموعة من الموضوعات، وأماطت اللثام عن جملة من القضايا، فإنها في المقابل فتحت باب النقاش بخصوص ضرورة إخضاعها، فعمدت إلى تشريح الثورة ونقل وقائعها وهواجسها. (وزناجي، 2020، صفحة 198)

هناك عدة معادلات سينمائية لأحداث التاريخ، وهناك عدة تواريخ للسينما، فالسينما وثيقة الصلة بالتاريخ منذ نشأتها إلى يومنا هذا، فعند ولادتها كانت تتغذى من التاريخ ووقائعه وأحداثه،

ثم أصبحت بدورها تاريخا يروى...حيث أن كل فيلم تاريخي يكون مجال وزمن أحداثه، الزمان الماضي بمختلف مراحله وإغفال الموضوعات التي تدور في الزمن الحاضر كأنه زمن جامد لن يكون فيما بعد ماضيا، أي كأنه لن يصبح تاريخا بعد غوره داخل حركة الزمان التي لا تتوقف. (قاسم، 2014، صفحة 21)

لقد أصبح بديهيا أن التاريخ كان ومنذ اللحظات الأولى، أي منذ أول صورة سينمائية تم تنفيذها مصدرا لا غنى عنه للمادة السينمائية، ثم أصبحت السينما بدورها أهم مصدر للموضوعات والأحداث التاريخية في جميع مناطق العالم.

منذ بداية ولادة الفن السينمائي تم تصوير كم هائل من الأفلام، والوثائق المصورة هي المادة الخام التي أصبحت تشكل اليوم أرشيفا مذهلا يستغلّه المؤرخون لتدوين وقائع التاريخ البشري، ومنذ ذلك الحين وحتى اليوم أصبحت علاقة الناس بماضيهم مرتبطة ارتباطا عضويا بهذا الأرشيف الصوري أو المرئي أي أصبحت تلك الأشرطة المصورة هي الذاكرة الفيلمية للشعوب. (المسيحي، 2005، صفحة 130)

وبهذا فان هدف التاريخ يبقى الحفاظ على الإنسان، وهو الذي يصور المراحل التي يمر بها منذ نشأته حتى اليوم في جميع جوانبها الفكرية والروحية والمادية، فالدراما تمثل الانعكاس الحقيقي للمجتمع الذي ولدت فيه، فهي مرآة المجتمع التي تعبر عن مثله الأعلى في الفن والأخلاق والجمال بمرونة شكلها وعصرية موضوعاتها وتنوع أسلوبها فان الدراما قد كانت في كل فترة من فترات تاريخها المتتابعة مسرح الأزمنة الحديثة. (ليور، 1965، صفحة 185)

وبهذا يسهم التاريخ في مواكبة التطور الثقافي والحضاري للإنسان، وكانت للدراما حصتها الكبيرة من التاريخ، إذ استمدت من الوقائع والأحداث التاريخية والشخصيات البارزة تلك المادة الغنية التي من خلالها نسجت لنفسها الأعمال الدرامية المختلفة، وبهذا أصبحت المادة التاريخية ينبوعا لا ينضب للموضوعات التاريخية التي أطلق عليها الدراما التاريخية.

وأخذ المؤلفون يبحثون في أغوار التاريخ لاستلهام الموضوعات التي يستطيعون توظيفها دراميا، وخاصة الوقائع والأحداث التي تتناسب مع عصرهم في التعبير عنها ضمن الرؤية الدرامية الخاضعة لاتجاهاتهم وميولهم، التي شكلت نمطين أساسيين للدراما التاريخية الأول مبني على الاعتقاد بأن التاريخ معنى وأنه يحقق مهماته الموضوعية ويقود في اتجاه محدد أنه عقلاني أو أنه على الأقل يمكن

جعله مفهوما، والنمط الآخر الذي يعتقد أن التاريخ لا معنى له، وأنه واقف لا يتحرك أو أنه يعيد دوراته القاسية وأنه قوة عنصرية كأحد عناصر الطبيعة. (سلمان، 2009، صفحة 45)

5 – أهمية اشتغال السينما على الذاكرة التاريخية

تبرز اليوم أهمية اشتغال فن السينما على الذاكرة والتاريخ، وتبرز معها ضرورة اشتغال المؤرخ مع كاتب السيناريو، لانجاز أفلام سينمائية تستمد من التاريخ موضوعاتها، في قالب إبداعي تعبيري ممتع وهادف في نفس الوقت، يراعي توثيق التاريخ وصيانته، وتغدو معه الصورة مصدرا توثيقيا هاما، ليس فقط لصيانة الذاكرة التاريخية، وإنما أيضا لاشتغال المؤرخين الذين اقتنعوا بأهمية هذا المصدر المصور في كتابة التاريخ الحاضر، فأقبلوا على تعلم مناهج تفكيك رموزه وإيحاءاته.

لذا فالسينما العالمية والوطنية نماذج لتجارب سينمائية اشتغلت على الحدث التاريخي، وبصمت ذاكرة المشاهد، فقد اتخذت بعض الأعمال السينمائية من التاريخ مرجعا لبعض أعمالها، فأقبل كتاب السيناريو والمخرجون على توظيف التاريخ الوطني، سواء في بعده السياسي أو الاجتماعي، في أعمال سينمائية. (نصيرة، 2017، صفحة 123)

وهذا ما نجده في العديد من الأفلام التي اعتمد فيها كتاب السيناريو على المادة والروايات التاريخية، فراحوا يقتبسون منها ويطعمون بها الأساسيات والتقنيات التي يبنى عليها السيناريو، لتصبح فيما بعد أفلاما تقبل عليها الجماهير وتستقي منها ما فاتها من أحداث تاريخية، وهذا ما جعلها نموذجا فاعلا وحيا في حفظ وصون الذاكرة التاريخية.

تلتقي السينما والتاريخ عند تيمة تصوير سيرورة المجتمعات، وتختلف أشكال التناول والمعالجة باختلاف آليات اشتغال كل حقل من هذه الحقول، ومن المتعارف عليه أن السينما بمختلف البقاع تتغذى في أعمالها من التاريخ بأحداثه وتفاصيله وسيرورته المعقدة وتحولات مجتمعاته، بغض النظر عن طبيعة المجتمع، فتحول التاريخ في علاقته بالسينما إلى مادة درامية تستلهم منها هذه الأخيرة أحداثها لتبلورها فنا بالصوت والصورة، مما يطرح ضرورة إعادة النظر في المنهج الذي يتبعه صناع السينما في عملية توظيف التاريخ وتمثله وتصويره عملا.

يستدعي توظيف السينمائيين لتاريخ في أعمالهم ضرورة توافر الجدية في المقاربة والجرأة في الخوض في تفاصيل الأحداث، مع مراعاة الموضوعية قدر الممكن في القضايا الكبرى مع اختلاف الأزمنة المتناولة، والسينما باعتبارها نحتا من الزمن، ملزمة بتقريب الواقع من المتلقي قدر الإمكان، إيمانا بمصداقية وعدالة القضية التي يدافع عنها المبدع، أكان منتجا أو مخرجا أو ممثلا، مع ضرورة

التحلي بالجرأة الرصينة في التطرق إلى الموضوعات التاريخية ذات البعد الاجتماعي أو السياسي من قبيل ملفات الاعتقال والتعذيب الذي كان يصنف ضمن الطابوهات الممنوعة. (نصيرة، السينما المغربية ورهان الاشتغال على الذاكرة والتاريخ، 2017، صفحة 130)

تخضع علاقة السينما بالذاكرة والتاريخ لتأسيس يبرر الجمع بينهما، ويوضح غايات ذلك، باعتبار أن السينما تعبير فني، والتاريخ والذاكرة مادة أولية للاشتغال، وقد خلقت السينما خيالا خاصا بها أثناء تناولها لقضايا الذاكرة الجماعية، وصنعت بذلك رموزها وعوالمها، بحيث برزت مكوناتها صورة مغايرة للحقيقة الفعلية للذاكرة، فأصبحت رؤية جماعية جديدة لصورة المجتمع في ماضيه وموروثه، وفي حاضره كذلك، وفي مستقبله المعبر عن صورة ما له بصيغ عديدة منها صيغة استثمار الذاكرة والتاريخ والماضي والموروث، لقراءة حاضر قائم ومستقبل منشود، فالاشتغال الايجابي للسينما على الذاكرة، هو السعي لخدمة الحقيقة التاريخية بآليات التعبير السينمائي من المدخل الوثائقي أو الروائي. (مولاي، 2017، الصفحات 181 – 182)

6 – أهمية توظيف السينما في البحث التاريخي

وظّف السينمائيون التاريخ كموضوع لأشرطتهم منذ وقت مبكر، حيث تتضمن السينما كوثيقة أو مصدرا للتاريخ المعاصر معطيات متنوعة وغزيرة أحيانا، كما أن الفيلم التاريخي الذي يبدعه بعض عباقرة السينما يمكن اعتباره بمثابة قراءة للتاريخ ولا تقل أهميته عن قراءة مؤرخ محنّك، وبالتالي لا يمكن حصر عمل السينمائي بمجال علم النفس أو علم الاجتماع فحسب، بل هو مؤرخ قبل كل شيء، يقدم وثيقة تاريخية متميزة.

لقد أصبح من الضروري اليوم توسيع مفهوم الوثيقة التاريخية ليشمل مجال الصورة، وبالتالي توسيع مجال الإشكاليات التاريخية إلى مجال أرحب لا تسمح بها الوثيقة التقليدية. (العربي، 1993، صفحة 100)

وهذا ما دفع المهتمين بالتاريخ الجديد، وعلى رأسهم "فرنانند دروديل" إلى الاهتمام بتقنيات السينما بعدما أصبحت كنزا مشتركا لكل من يريد التعامل مع الماضي، وقد عرفت العقود الثلاثة الأخيرة تزايد في الاهتمام بالوثيقة السينمائية لتميزها عن الوثائق المكتوبة، فهي لا تدون الحدث على الورق، وإنما تدونه على أشرطة السيلوليد Cellulod صوتا وصورة وحركة، أي أنها وثيقة نابضة بالحياة تكاد تكون صورة طبق الأصل لواقع الحدث الفعلي. (أحمد، 1990، صفحة 91)

ذلك أنها تجمع بين الزمان والمكان والإنسان، لتصبح بعد ذلك وسيلة لبناء الذاكرة الجماعية تكوين الوعي المشترك.

ويكفي هنا أن نشير إلى الدور الذي لعبته السينما بالنسبة لكلا المعسكرين أثناء الحرب العالمية الأولى، حيث استفاد التاريخ المعاصر من تقنيات السينما التسجيلية التي وظّفها كلا الطرفين لإثبات مشروعية الحرب وعدالة أطروحتهم، فإلى جانب الخنادق الطويلة التي حفرت في أوروبا على مئات الكيلومترات، وعاش فيها الجنود بين الوحل والغازات السامة، شهدت الحرب العالمية الأولى ساحات أخرى من الصراع لا تقل شراسة وندبة، وكانت قاعات السينما مجالا لها، حيث عملت الأطراف المتصارعة على توظيف السينما كسلاح لا يقل تأثيرا عن الأسلحة الجديدة بهدف سحب المشروعية من الطرف الآخر، وإبرازه في صفة المنهزم والاستغلالي لأبناء المستعمرات، ولا تزال هذه المشاهد والوثائقيات التي صورت أثناء المعارك من أحسن الوثائق التاريخية ضبطا وإفادة إلى يومنا هذا، وبفعل الصورة السينمائية المتحركة انتقل المصدر التاريخي المعاصر من مصدر خفي تحكمت في وضعه آليات الكتابة واللغة إلى أرشيف جديد. (محمد أ.، 2005، صفحة 43)

7 – شروط توظيف السينما في البحث التاريخي

يحتم توظيف السينما كمصدر جديد للمعلومة التاريخية شروطا خاصة في عملية البحث، تفرض على المؤرخ المعاصر التمكن من أدوات وتقنيات منهجية لا تخص حقل التاريخ وحده، بل تتعداه إلى الانفتاح على مختلف المدارس الفنية وتقنياتها، فيتعامل المؤرخ المعاصر مع فنون لم تكن موجودة قبلا، فأصبح يتعامل مع واقعة المؤرخ تعاملا آخر، وأخذ يحولها إلى واقع مكتوب بكيفية سينمائية.

إن مؤرخ السينما يتحلّى بكثير من الدّقة والحس النقدي في دراسة الفيلم سواء أثناء قراءة اللقطات منعزلة، أو عند دراستها كوحدات مكونة للفيلم في علاقتها المتبادلة الناتجة عن التركيب والبناء، وتعامل مؤرخ السينما مع الفيلم هو في جوهره عمل مشابه لتعامل المؤرخ مع الوثيقة المكتوبة.

وإذا كان الشريط المصور لا يتوفر حسب المؤرخ الوصفي على الموضوعية، لتميزه بالحبكة، والتقطيع، والتركيب، والبناء، والتجميع، تقوم به أيادي خفية تجعل منه خدعة، فان ذلك لا يعني الاكتفاء بالوثائق المكتوبة الأمينة بقدر ما يدفع إلى حسن الاستغلال، والتوظيف والانفتاح على

دراسة هذا الفن، وتطوره التاريخي بكل وعي يحترم المعايير العلمية، وإلا سيصبح المؤرخ أشبه بكاتب السيناريو، ولذا فان التعرف على السينما وتقنياتها وضوابطها، مسألة حتمية لكل مغامر يطرق باب هذا الفن، لذلك يوصي الباحث المختص "أحمد سجلماسي" المؤرخين بضرورة الاطلاع على تاريخ السينما العالمية والمحلية أولا، وكذا الإلمام بجوانب من الثقافة السينمائية لكل راغب في توظيف هذا الفن كوثيقة في مجال البحث التاريخي، كما يجب على المؤرخ أن يتخلى عن تراتبية المصادر التقليدية التي طالما تصدرتها الوثائق السرية الصادرة عن البلاط والحكام. (الكرادي، 2021، الصفحات 227 – 228)

8 – السينما الجزائرية والذاكرة التاريخية

8 . 1 – رواد للسينما الجزائرية

8 . 1 – 1 روني فوتيه

يعتبر روني فوتي أول من استعمل الكاميرا لتصوير معارك جيش التحرير الوطني في الجبال، وكان ذلك في الولاية التاريخية الأولى (أوراس النمامشة)، كان فوتي قبل ذلك مصورا يتابع بكاميراته الاضطرابات والاحتجاجات والمطالب العالمية في فرنسا، قبل أن يلتحق به سينمائيون فرنسيون آخرون كانوا من المناضلين المقربين من الحزب الشيوعي، وعلى رأسهم بيار كليمون pierre clément ويان لوماسون yanne le masson و سيسيل دي كوجيس cécile de cujis وهو الأمر الذي يبرر وجود أسمائهم في إخراج أولى الصور في الجزائر. (وزناجي، أفلام السير الذاتية في الجزائر، 2020، صفحة 201)

8 . 1 – 2 – محمد لخضر حامينه

كما نجد أيضا المخرج محمد لخضر حامينه الذي التحق بمسؤولي الاعلام في الحكومة الجزائرية المؤقتة بتونس 1959، وهناك استغل الفرصة لصقل موهبته السينمائية بإجراء تكوين سريع في قسم الأخبار بالتلفزة التونسية، بعدها أرسل إلى براغ لدراسة السينما، لكنه لم يكمل دراسته وقرر العودة إلى تونس لمباشرة العمل الميداني لتصوير أفلام وثائقية عن الثورة الجزائرية، ومن بين الأفلام التي قام بتصويرها نذكر فيلم "صوت الشعب" و"بنادق الحرية" الذي أخرجه رفقة جمال الدين شندرلي سنة 1962، وبذلك يكون محمد لخضر حامينه قد تمكن من خلال أفلامه على تجسيد واقع الحرب في

الجزائر على أكمل وجه، ورغم الصعوبات والعراقيل إلا أن أعماله كان لها دور كبير في نقل يوميات الثورة ومعانة الشعب الجزائري من ويلات الاستعمار. (نسيمة، 2019 – 2020)

8 . 1 – 3 – جمال شندرلي

وفي نفس السياق يؤكد الفنان "رابيه" أن اسم "جمال شندرلي" ظل مرتبطا بالثورة التحريرية، حيث نقل وقائع وصور من عمق المناطق المحررة، وكانت الكاميرا في يده شاهدة على الجرائم والاعتداءات، وبذلك كانت سلاحا آخر وحجة ضربت ديغول وفرنسا. (مريم، 2018)

ونوه أحمد بجاوي في مداخلة بعنوان: "الثورة والسينما: دور الصورة في المعركة التحريرية" بالدور الكبير الذي لعبه رواد السينما الجزائرية في تدويل القضية الجزائرية من خلال أعمالهم السينمائية على غرار المخرج جمال شندرلي الذي خدم لثورة منذ بداياتها الأولى.

8 . 1 – 4 – أحمد راشدي

ومن بين المخرجين الذين أثروا الذاكرة التاريخية من خلال أفلامهم السينمائية نذكر مخرج وكاتب السيناريو "أحمد راشدي" الذي درس الأدب الفرنسي والتاريخ والسينما، ويعتبر من رواد السينما الجزائرية الذين ساهموا بأعمالهم المتميزة في تطوير الفن السابع في الجزائر، وقد درس تاريخ السينما وكان على رأس مؤسسة المركز الجزائري لصناعة السينما، شارك في إخراج فيلم جماعي "مسيرة شعب" لتخليد حركة حرب التحرير الجزائرية، ومن أشهر أفلامه: "الطاحونة"، "مصطفى بن بولعيد"، "فجر المعذبين". (راشدي، 2021)

8 . 2 – الثورة التحريرية والصورة

ظهرت السينما الجزائرية استجابة لحاجة الثورة التحريرية إليها، إذ أنها كانت من بين الوسائل الإعلامية الأكثر تأثيرا التي اعتمد عليها قادة الثورة بغية مواصلة الكفاح، وتحقيق الاستقلال، فبعد اندلاع الثورة تنبه قادتها إلى مدى أهمية السينما، خاصة عندما أدركوا أهمية التعريف بالقضية الجزائرية خارج الوطن من خلال الصورة، لأجل ذلك اتصلت جبهة التحرير الوطني سنة 1955 بـ "جمال شندرلي" لتكلفه بقطاع الإعلام خارج الوطن لصالح القضية الجزائرية.

أكدت مواثيق الثورة الجزائرية، على رأسها مؤتمر الصومام (أوت 1956) الأهمية القصوى التي يكتسيها قطاع الإعلام والدعاية في الداخل والخارج، غير أن تحقيق هذه الأهداف كلها واجهته في البداية عراقيل عديدة، بسبب المشاكل الكثيرة التي اعترضت نشاط الثورة الجزائرية، إلى أن

التحق بالثورة شاب من جنسية فرنسية، لكنه مؤيد للقضية الجزائرية، هو روني فوتي سنة 1956، بجبال الأوراس، ثم التحقت به مجموعة من السينمائيين الأجانب، هم بيار كليمون، وسيسيل ديجوكس، وستيفان لابودوفيتش، وفي سنة 1957 تم فتح مدرسة للتكوين السينمائي في جبال الولاية الأولى، تحت إشراف روني فوتي، وكان الطلبة جنودا، تلقوا المبادئ الأولى في السينما، وصاروا تقنيين عملوا بدورهم في نقل صور الكفاح في الجبال. (وزناجي، أفلام السير الذاتية، 2020، صفحة 198)

8 . 3 – عينة من الأفلام الجزائرية التي تناولت التاريخ

لم يكن بوسع السينما الجزائرية أن تعتبر وسيلة فنية بقدر ما استعملت للدعاية الإعلامية بهدف فضح جرائم المستعمر، وتكوين أرشيف للثورة وذاكرة حية للأجيال، وقد سعت إلى التعبير بصدق عبر تقديم صور حية وواقعية لأرض المعركة، فكانت الحاجة ملحة لإيجاد سينما تواكب مسيرة حرب التحرير التي بدأت عام 1954، وكان لابد لهذه السينما أن تنطلق من منطلق علمي مدروس، لا مجرد مغامرة صناعها ثوار جزائريون يسعون من خلالها للانتصار للهوية الجزائرية التي عملت السينما الكولونيالية على طمسها والقضاء عليها. (جان، 1978، صفحة 217) ويشير "محمد عبيدو" إلى أن لتزامن بداية الإنتاج السينمائي الجزائري مع ثورة شعبها على الاحتلال الفرنسي دور كبير في صياغة توجهه نحو تصدير حقائق الواقع المعيش وتسجيل الأحداث التاريخية، خاصة المتصلة منها بالثورة الجزائرية، حيث نجد أن الثورة عملت منذ البداية على تجنيد كل ما أتيح لها من وسائل سمعية بصرية، وكفاءات لتوثيق كفاح الشعب الجزائري في أفلام مادتها الأولى من نسج الواقع اليومي للثورة، مثلما سجلت نشأة متميزة لفن سينمائي يرتبط ارتباطا مباشرا بالواقع النضالي. (محمد ع.)

هناك العديد من الأفلام في تاريخ السينما الجزائرية تطرقت إلى الذاكرة التاريخية بإسهاب، وسعت إلى ترسيخ حيثياتها في أذهان الأجيال الناشئة من خلال الصوت والصورة، ولعل أشهر هذه الأفلام: "الأفيون والعصا"، و"أبواب الصمت"، و"دورية نحو الشرق"، و"ريح الأوراس"، و"معركة الجزائر"، و"ديسمبر"، و"أبناء القصبة"...وغيرها من الأفلام التي حاولت استعادت ذاكرة الشعب الجزائري متخذة من ثورة التحرير المادة الخام لمواضيعها. (لوي، 1993، صفحة 11)

8 . 3 . 1 – فيلم سنين الجمر

يعد فيلم سنين الجمر للمخرج لخضر حامينا ذاكرة حية بالصوت والصورة لمرحلة جد حرجة من مراحل تبلور الوعي الفكري لدى الشعب الجزائري، فالفيلم يسعى إلى البحث في الذاكرة الوطنية من خلال الوصف والتحليل لإماطة اللثام عن أسرار وخفايا مرحلة ما قبل ثورة أول نوفمبر، من أجل الكشف عن الأسباب المباشرة والغير مباشرة لاندلاعها، باعتبارها ثورة شعبية عارمة من أجل استرجاع السيادة الوطنية، كما يعدّ الفيلم رحلة البحث عن الهوية المفقودة. (شارلوث، 1998، صفحة 731)

تتجلى الذاكرة الشعبية في الفيلم بوضوح، حيث يعكس لنا تنوعا فكريا وزخما ثقافيا وثراء فنيا للمجتمع الجزائري، من خلال شخصية "الميلود" الدرويش المعروف في الثقافة المغاربية باسم الراوي، والذي حمل على عاتقه مسؤولية تحشمها طيلة الفيلم، سهل الأحداث وعلّق عليها، ولعب دور محرك الأحداث ، ومعروف في تراثنا الشعبي المحلّي أن القوال شخصية فذّة لا نظير لها، انه متعدد المواهب والوظائف، وله مهام كبرى في المجتمع. (الكردي، 1996، صفحة 09)

ينقلنا المخرج إلى مشهد درامي ويحيلنا على أحداث تاريخية تتعلق بالتجنيد الإجباري خلال الحرب العالمية الأولى، فعند عودة أحمد من التجنيد الإجباري بعد سنوات من الحرب ضد النازية، يكافئه المستعمر بمشهد جثث القتلى والدماء السائلة على الأرض، ومشاهد الدمار التي تعم المكان، كما يجد أبناء قريته قد تم تهجيرهم.

إن هذه الحقائق التاريخية لا زالت راسخة في ذاكرة الشعب الجزائري الذي خرج إلى الشارع في مسيرات سلمية مطالبا فرنسا بالوفاء بوعدها في منحه الاستقلال، لكنها قابلته بالرشاشات والمدافع، مخلفة آلاف القتلى في ما يعرف بمجازر 8 ماي 1945. (حامينة، 1974)

8 . 3 . 2 – فيلم الخارجون عن القانون

يصور لنا الفيلم لمخرجه "رشيد بوشارب" أحداث الثورة من 1925 إلى 1962، إذ ينقلنا المخرج منذ اللحظة الأولى من الفيلم إلى الماضي المخزي لفرنسا، حيث يعطينا صورة لانتهاك أراضي الفلاحين من قبل القايد بأوامر من ضباط الجيش الفرنسي، ومنحها للمعمرين الفرنسيين.

كما يصور الفيلم أحداث 08 ماي 1945 التي تعدّ واحدة من أبشع المجازر المرتكبة في حق الشعب الجزائري وحق الإنسانية جمعاء. (المالك، 1971، صفحة 40)

8 . 3 . 3 – فيلم ديسمبر

تدور أحداث الفيلم لمخرجه "محمد لخضر حامينة" حول مظاهرات 11 ديسمبر 1960، والتي تعتبر منعرجا حاسما في تاريخ حرب التحرير الوطني، والتي كشفت بدورها عن الأساليب القمعية الوحشية التي كان ينتهجها المستعمر الفرنسي ضد الشعب الجزائري، فقد كشفت هذه الأحداث للعالم أجمع الحقيقة الإجرامية للمستعمر الفرنسي ووحشيته، وعبرت عن وحدة الشعب الجزائري والتفافه حول جبهة التحرير الوطني، ففي ذلك اليوم خرج الجزائريين إلى الشارع للتعبير عن رفضهم للاستعمار، وتمسكهم بالاستقلال والحرية. (فيلم ديسمبر ، 2012)

وتجدر الإشارة إلى أن هذه العينة من الأفلام التي تناولت مأساة الشعب الجزائري، وحملت على عاتقها قضيته التي يتطلع إلى تحقيقها وهي الحرية التي طالما ناضل من اجلها ودفع الثمن باهظا، وهذا ما صورته هذه الأفلام من خلال المعالجة الدرامية لتلك الأحداث التي أضحت اليوم وثيقة تاريخية تغذي العقول وترسي دعائم الوعي السياسي وتحفظ الذاكرة الجماعية عبر ما تعرضه على شاشات السينما.

خاتمة:

قد تعود بنا الذاكرة السينمائية إلى الماضي للتنقيب عن الأحداث والوقائع التاريخية، لمعرفة التفاصيل التي تمكننا من فهم أبجديات الماضي واستيعاب الحاضر وتحدي واستشراف المستقبل، وبالرغم من مرور قرابة نصف قرن على استرجاع الجزائر لاستقلالها السياسي، ما نزال إلى يومنا هذا نسمع أصواتا تطالب بضرورة كتابة تاريخ الثورة، وهذا ما عكفت عليه السينما الجزائرية كونها ذاكرة الشعب التي رافقته وسجلت نضالاته وتغنت ببطولاته، من خلال تشريح وتصوير وقائع وأحداث حرب التحرير التي شغلت الكثير من الباحثين والدارسين والأدباء، والسينمائيين على الخصوص الذين تحركت قرائحهم لصياغة الحقائق التاريخية، تمجيدا لواحدة من أهم الثورات التي عرفها التاريخ، فالأحداث التاريخية هذه تعطي للمخرج والسيناريست حقلا خصبا للبحث في ثناياه عن فكرة جيدة ومناسبة لتكون نصا سينمائيا أو تلفزيونيا.

لقد اشتغل المنجز الفيلمي الجزائري بموضوعات تقارب الذاكرة التاريخية الجماعية وتقترب منها، خاصة القضايا المرتبطة بالاستعمار والتحرر والمقاومة، إذ اختزلت الصورة السينمائية مساحات شاسعة لتموجات الذاكرة والتاريخ الجزائري، واحتفت بالذاكرة الجماعية والتاريخية، وفق تناول يغترف من القاموس الاحتفالي، والتمجيد البطولي والملحمي المتخم بالنبرة الوطنية، وهذا ما استنتجناه من خلال عينة من الأفلام التي جاءت في صلب الدراسة، والتي نخلص من خلالها إلى عدة توصيات أهمها:

– أهمية الاشتغال على المنجز الفيلمي وتعزيز الذاكرة التاريخية من خلال التطرق لموضوعات تاريخية كانت خافية على المجتمع الجزائري.

– الحرص على الدقة في التحري والتنقيب عن الأحداث التاريخية حتى تكون مرجعا موثوقا للأجيال.

– التعزيز من الإنتاج السينمائي الذي يمجد الثورة التحريرية ويحتفي بمواقف الأبطال الذين صنعوا مجدها.

– خلق قنوات الاتصال والتواصل بين الباحثين والمؤرخين وصناع السينما.

المراجع :

الكتب :

1 – السبتي عبد الأحد، التاريخ والذاكرة: أوراش في تاريخ المغرب، ط1، المركز الثقافي المغربي، الدار البيضاء، 2012
2 – ألكسان جان، السينما في الوطن العربي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، ع51 يناير 1978
3– جيدة محمد،بؤس التاريخ: مراجعات ومقاربات، ط1، دار الأمان، الرباط، المغرب، 2015
4 – صليبا جميل، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982
5 – عبد الرحيم الكردي، الراوي والنص القصصي، دار النشر للجامعات، القاهرة، مصر، ط2، 1996
6 – علي الصباح سلمان، المعالجة الإخراجية لمشاهد المعارك في الدراما التاريخية مسلسل هولاكو أنموذجا، مجلة كلية التربية، العراق، ع2، 2009
7 – قاسم عبده قاسم، الرواية التاريخية العربية زمن الازدهار، المستقبل، ثقافة وفنون، ع 3723
8 – محمد الكرادي، علاقة التاريخ بالسينما: السينما الكولونيالية ببلدان المغارب أنموذجا، مجلة قرطاس الدراسات الفكرية والحضارية، مج08، ع1، المغرب، 2021
9 – محمد لخضر حامينة، وقائع سنين الجمر، الديوان القومي للتجارة والصناعة السينمائية، الجزائر، 1974، 1سا 45 د
10 – مرتاض عبد المالك، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925 – 1954، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971
11 – مصلح الصالح، الشامل: قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، ط1، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1999
13 – مومن السميحي، حديث السينما، طنجة، سليكي إخوان، ج1، ط1، 2005
14 – واحي العربي، الاستعمار والسينما: حالة المغرب، ضمن التاريخ والسينما، أشغال الندوة المنظمة من 16 الى 24 فبراير 1990، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، بنمسيك الدرا البيضاء، المغرب، 1993

مقال في مجلة:

1 – أوجامع محمد، التاريخ بين الحقيقة المعرفية والإبداع الفني، ضمن الكتابة التاريخية والإبداع السينمائي، أشغال ندوة المقاومة المغربية المنظمة بكلية الآداب والعلوم الانسانية، سايس – فاس، 15 و16 دجنبر 2004، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ط1، 2005
2 – سيجلماسي أحمد، ملاحظات حول السينما كمصدر من مصادر التاريخ: حالة المغرب، ضمن التاريخ والسينما، أشغال الندوة المنظمة من 16 إلى 24 أفريل 1990، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بمنسيلك، الدار البيضاء، المغرب
3 – قشاشي فؤاد، الذاكرة التاريخية في السينما المغربية: الرهانات المجتمعية ودلالات الاشتغال، أشغال ندوة علمية دولية، كتاب جماعي: السينما والذاكرة: الرؤية والرهانات، منشورات الكلية متعددة التخصصات، ومنتدى الجنوب للسينما والثقافة، ط1، 2017، ورزازات، المغرب

4 – مراد وزناجي، أفلام السير الذاتية في الجزائر: الواقع والمأمول، السينما ومعاني التاريخ الاجتماعي، مؤلف جماعي محكم، ط1، 2020، المجلس الجماعي لورزازات، المغرب
5 – مساوي مولاي، اشتغال الذاكرة المجتمعية في السينما، من التوظيف الإيديولوجي إلى بناء الانتساب الإبداعي، أشغال ندوة علمية دولية، كتاب جماعي: السينما والذاكرة: الرؤية والرهانات، منشورات الكلية متعددة التخصصات، ومنتدى الجنوب للسينما والثقافة، ط1، 2017، ورزازات، المغرب
6 – كزناي نصيرة، السينما المغربية ورهان الاشتغال على الذاكرة والتاريخ، أشغال ندوة علمية دولية، كتاب جماعي: السينما والذاكرة: الرؤية والرهانات، منشورات الكلية متعددة التخصصات، ومنتدى الجنوب للسينما والثقافة، ط1، 2017، ورزازات، المغرب

المراجع المترجمة:

1 – دي جانيتي لوي، فهم السينما، ترجمة جعفر علي، منشورات عيون، مطبعة تينمل للنشر والطباعة والتوزيع، الحي المحمدي، مراكش، المملكة المغربية، 1993
2 – سيمور سميث شارلوث، موسوعة علم الإنسان، المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولجية، ترجمة: مجموعة من أساتذة علم الاجتماع بإشراف محمد الجوهري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 1998
3 – ميشال ليور، ترجمة : أحمد بهجت، الدراما، بيروت، منشورات عويدات 1965

المواقع الالكترونية:

1 – عبيدو محمد، السينما في الجزائر البدايات، http//www.ahewar.org، تاريخ الاطلاع: 03/مارس/2021
2 – www.elkhadra.com، تاريخ النشر في الموقع 12 نوفمبر 2012، تاريخ الاطلاع 13 مارس 2021